الاصلاح الخلقى فى مصر

للأستاذ محمد مصطفى عطا

مما لاشك فيه أن الازمة الخلقية التى تواجهها مصر اليوم ليست أزمة طارئة ولكنها تستمد وجودها وانشعابها من ماضينا الحافل بالخطوب والأحداث ، والذى خلف لنا ألوانا من المحن والعقابيل أرادتنا على التخلف فى قافلة الحضارة التى تتطلب استعدادا خاصا واتجاها خاصا فى حياتنا الحاضرة

لقد ظلت مصر حينا من الدهر مسرحا لسلسلة احتلالات أجنبية كان آخرها احتلال العثمانيين فالفرنسيين فالانجليز ، وقد صمدت مصر لهذه المحن ، واحتفظت بشخصيتها وعاداتها وتقاليدها ودينها ولكن هذا لم يمنع من أن ينال أبناء البلاد بعض الأوبئة الوافدة أو التى كانت تصطنع اصطناعا للتأثير فى نفوسهم والايقاع بينهم ، وبذر بذور الفتنة وحرمانهم النور والمعرفة ، والحيلولة بينهم وبين الانتظام فى سلك الجندية مما أدى بهم الى الزهد والتصوف أو الاندفاع فى الشهوات واشباع الغرائز السفلى ، وكلاهما كان جناية على الأخلاق ، ولا ننسى ما كان من أثر الامتيازات الأجنبية من تمكين الأجانب فى مصر من التحكم فى الحال المالية والاقتصادية وقيامهم بالمشروعات الصناعية والتجارية وجعلها وقفا عليهم مما أدى الى كثرة الأجراء والعمال وضعف الدخل الصغير وعدم استتباب الأمن فى البلاد

هذا الى أنها كانت العامل الأكبر فى نشر الفساد بالاكثار من الحانات والمراقص ودور اللهو ومنازل الدعارة وأماكن القمار وامتصاص أموال المصريين بالسبل الرخيصة الوضيعة فمما لايستطيع أن ينكره منصف أن بعض الأجانب ممن لاخلاق لهم استغلوا هذه الفرصة وجعلوها ستارا لقضاء مآربهم وإفساد الأخلاق

وكان هم البلاد الأكبر فى الفترة الأخيرة منصرفا الى الجهاد فى سبيل الحرية والاستقلال ، فلم يتسع أبناؤها بعد بأساحة الكفاح والنضال فى سبيل امتداد النفوذ وإرساء بينهم وبين وضعهم الجديد كأمة تتزعم الشرق العربى

وإنى لأصرح هنا بأن مصر الآن ليست فى حاجة ملحة الى المال أو العلم كحاجتها الى متانة الخلق لمواجهة الحياة الجديدة .

إننا نرزح الآن تحت أثقال أعوام طوال أصابتنا فى نفوسنا وأرواحنا حتى تشككت بعضنا فى صلاحيتنا لحكم أنفسنا بأنفسنا

فعلى المربى أن يزيل عن نفوسنا ما لحق بها من ضعف واخلال حتى تستقيم أمورنا وتقوى دعائم نهضتنا « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، ولكن ما سبيلنا إلى ذلك ؟

أملنا الأول فى إصلاح التلميذ والمعلم فى خلق روح جديدة . روح التربية الاستقلالية والاعتماد على النفس فى تغيير الحالة الراهنة للتعليم التى تحتاج إلى علاج سريع فى المادة والطريقة ، فالمواد المقررة أكثرها نظرية غير عملية ، بل إن الناحية العملية مغفلة تمام الاغفال ، وإنى مازلت عند رأيى من تعميم مايسمى بالمدارس الريفية والقضاء على المدارس الأولية والإلزامية والابتدائية أو تعزيز المدارس الابتدائية بالناحية العملية الزراعية أو الصناعية ويعجبنى فى هذا الصدد ما قرره العلامة الفرنسى C. Bouglé حيث قال "التقريب بين التعليم والعمل" وبخاصة العمل المهنى منهج فيه ما يغرى المربين فالكثيرون منهم يشكون من أنهم يرون المناهج التى تملى عليهم تحلق فوق رءوس التلاميذ فهى مناهج نظرية مكتبية تتناول حقائق أوسع من إدراك الطفل أو كثيرة البعد عن الحقائق التى تضعها الحياة تحت بصره وهذا النوع من التعليم يظل فى الواقع عديم الجدوى لأنه تعليم نظرى بحت أليس من خير الوسائل لنفث الروح فى تعليم العلوم أن نتخذ من العمل الفنى ومن الإعداد للمهنة نقطة البدء ونقطة الارتكاز[1] ؟

وطريقة التدريس اليوم طريقة اجبارية محضة مع أن الواجب أن تكون تنقيبية ما أمكن

كما نادى بذلك كبار المربين وعلى رأسهم روسو فقد قال فى هذا الصدد ما نصه : "لا تدع التلميذ يعرف شيئا ما لأنك أخبرته به ولكن لأنه فهمه بنفسه ، فليس عليه أن يتعلم العلم ولكن عليه أن يكشف حقائقه بنفسه هو" .

ومما يؤسفنى أن أمس هذه الروح العقيمة التى مازالت تسيطر على طلبتنا فى المدارس روح الحفظ . حفظ المذكرات ! ! أما الرجوع الى المصادر لاستقاء المعلومات منها والذى يقوى شخصية التلميذ واستقلاله الفكرى فهذا مما يسخطه .

والطالب المصرى لا يحمل وحده هذه التبعة بل يشترك معه المعلم والقوامون على المناهج من المفتشين والفنيين ، فعلمه الأول لم يطبعه بهذا الطابع منذ حداثته ، والمشرع المصرى الذى وضع المناهج زوده بما يتجاوز المواد العشر .

* * *

وعلى المسئولين أن يعززوا وظائف المشرفين على التعليم بالشباب النابه المثقف من غير نظر الى أقدمية أو طول أمتداد الخدمة ، فبعض المشرفين اليوم ممن شبوا فى ظل الانظمة العتيقة التى لا تعامل التلميذ ككائن حى أو التى لا تعتبر المدرسة كمجتمع مصغر ولا ترى فى الجماعات المدرسية فائدة تذكر . مثل هؤلاء يجب أن نهيء لهم عملا آخر حتى لا يعوقوا سير القافلة أو يحولوا بيننا وبين التوثب والنهوض .

(١) من الحكيم بتديه إلى الوالدين الحديث ترجمة الدكتور سمور ص ١٣٩

ومن ناحية أخرى يجب أن نترك بعض الحرية للأساتذة والنظار فى تطبيق الانظمة التى تتفق وسير التعليم فيشعر كل بالمسئولية الملقاة على عاتقه ويبذل جهده فى النهوض بمادته ، ورفع مستوى تلاميذه ، اما أن نلقى اليه الأوامر ويصدر التعليمات ونأخذه برأى لايحيد عنه فمما يقتل فيا الشخصية ويطبعنا على الاستهتار واللامبالاة وكلاهما يسرى فى سرعة غريبة الى نفوس التلاميذ .

اللامركزية هى التى يجدر أن تسود أعمالنا أما أن نرجع الى الوزير فى الصغير والكبير من الأمور فتعويق للعمل ، وقيد للمواهب ، واضطراب للأمور (١)

وعلينا أن نأخذ أولادنا وشبابنا ومرءوسينا بالتربية الاستقلالية فى المنزل والمدرسة والمجتمع وأن نطبع شعبنا بطابع الاعتماد على النفس والتصرف فى الأمور وأن نقضى على النظرية الفاسدة التى ألقيت فى روعنا وهى أن المصرى لا يعيش خارج وطنه لأنه قد ربط بأرضه .

وكم كنت آسى عند ما أرى المجندين وقد أحاط بهم أمهاتهم وآباؤهم يبكون وينتحبون لأن ابنهم سيفارقهم إلى الجندية وكأنه سيفارقهم الى سقر أو سوف لايعود اليهم !

وكم كنت ألم أمر ألم عند ما أرى الموظف يضيق بنفسه عند ما ينقل إلى بلد آخر فى نفس وطنه ولكنه بعيد عن بلده ويأخذ فى إظهار الحسرة والتبرم إذ كيف يصنع فى بلاد الغربة !

إنى لأرجع كل هذه المظاهر إلى تدليلنا من آبائنا فوق ما ينبغى وإلى عدم تقوية شخصيتنا منذ الصغر .

لقد أصبح لنا اليوم وضع جديد وحياة جديدة فيجب أن يشب كل منا على أنه مجند فى وطنه إذا ارتأت حكومته سفره إلى داخل وطنه فعليه أن يمتثل وإذا أشارت عليه أن يغادره إلى السودان أو إلى بلد شقيق أو غريب فعليه أن يطيع من غير تذمر .

وإنى أحب أن أوجه نظر الحكومات إلى أمر طالما جر علينا الويلات ، هذا الأمر هو أنها تجعل المدن الداخلية والبلاد الخارجية كمنفى للموظفين المغضوب عليهم مع أنه يجب أن تختار لها الموظفين الأكفاء القادرين المستقيمين .

وأن يكون رائدها الدقة فى اختيار الموظفين المبعوثين إلى الأقطار العربية أو إلى الوطن الثانى السودان على أن توفر لهؤلاء الموظفين الحياة والعيش وأن تقوم بتعليم أبنائهم فى المدارس الداخلية على نفقتها الخاصة .

وعلى الدولة أن تفرض التجنيد اجباريا من غير تفرقة بين الغنى والفقير أو المدنى ورجل الدين فالكل أمام الوطن سواء بل إن من الأمور التى يمتاز بها الإسلام أنه لا يقر الرهبانية أو الزهد والتصوف وأول مبدأ من مبادئه الجهاد فى سبيل الله .

---

(١) الغريب أن كثيرا من المعارف قد نادوا بهذه الفكرة ولكنها لم تخرج الى حيز الوجود الا فى العهد الأخير فقد أصدر معالى السنهورى بك عدة قرارات توسع سلطة مراقبى المناطق ونظار المدارس حتى تتفرغ الوزارة والمفتشون لبحث النواحى الفنية .

وعليها أن تشجع الأكفاء والقادرين بالترقية وإسناد المناصب الكبيرة اليهم من غير تحزب أو انحراف أو مراعاة لهذا الوجيه أو ذاك .

وأن تعنى بنشر المتاحف الأثرية والصناعية ليطلع الأطفال والشعب على مبلغ نهضة الأمة ويوازنوا بينها وبين الأمم الأخرى فيسعى إلى الكمال والرقى .

الطفل فى أى بلد من بلدان العالم المتمدين أكثر ثقافة واطلاعا وتجاريب من أخيه الشرقى ، لماذا ؟ لهذه المتاحف المبثوثة هناك ولكثرة قيامه بالرحلات المختلفة على نفقة الدولة .

ثم ماذا ؟

تجنيد الشباب والشابات للقيام بالخدمات الاجتماعية من محو الأمية ونشر الثقافة الشعبية وبث الروح الرياضية ومكافحة الأمراض الخلقية كمنع المسكرات والمخدرات وما اليها .

نريد أن توجه الدولة عنايتها إلى نصفها الآخر بتعليم البنات تعليما يتفق ورسالتهن فى الحياة .

إن قلب الإنسان لينفطر عند ما يستمع إلى مجلس من مجالس السيدات فى مصر ؛ إنها تنحصر فى القيل والقال والأزياء والخرافات ، وإنى لأرجع ذلك إلى انتشار الجهل بينهن ولو أن هذه الصيحات التى ترتفع اليوم من الجنس اللطيف مطالبة بالمساواة وحق الانتخاب وجهت للقضاء على الأمية المروعة المنتشرة بينهن لكان ذلك أجدى عليهن وعلى الوطن .

فى مصر الآن يقظة اجتماعية تحسها فى كل نفس ، ولكنها تتطلب التوجيه والاستغلال وعلى زعمائنا ومصلحينا تقع التبعة .

نريد من الدولة أن تحشد جميع أنواع الدعاوة من الخيالة والمسرح والمذياع والكتاب فى سبيل الاصلاح الخلقى والاجتماعى ؛ وأن تعمل ما وسعها العمل على بناء كياننا الاقتصادى على عمد ثابتة فلا تكون هذه الفوارق الهائلة فى الثروة بين الافراد .

وأن تكون نزعة الاصلاح ديمقراطية فلا نفرق بين القرية والمدينة أو الحى الوطنى والأجنبى أو الفقير والغنى ؛ وألا نجعل سبيلا لخلق النزعات الرأسمالية أو إيجاد طبقات رفيعة ووضيعة ، فلم تقم المنازعات والحروب الأهلية والعالمية إلا بسبب وجود هذه الطبقات فى الأمة الواحدة وفى بناء كيان الأمم نفسها ، فهذه أمة خلقت للسيادة وتلك خلقت للاستعباد والاستكانة .

وأن تعمل الدولة ما وسعها العمل على أن تشفى المجتمع من دائه المكين الذى يهدد كيانه ويزعزع أركانه ألا وهو انتشار التعطل والتبطل أو بالأحرى ما يشبه التعطل والتبطل ، فهؤلاء الباعة الجوالون الذين يذرعون شوارع العواصم والمدن الكبرى ليل نهار لبيع ما قيمته عشرة قروش مستترين وراء هذه المهنة يتسكع والسرقة والنشل إذ لن يزيد ربحهم الحقيق أو مكسبهم الحلال عن ثلاثة قروش أو أربعة فكيف يعيشون بها ومنها ؟ لن يكون ذلك إلا إذا مد الواحد منهم يده بالسرقة منتهزا الفرص وكثيرا ما تواتيه . مثل هؤلاء ومن على

شاكلتهم من الأقوياء الأشداء يجب أن يجندوا فى المصانع والمزارع ليقوموا بخدمات للوطن هو فى أشد الحاجة إليها ، كاصلاح الأراضى البور أو نظام الرى أو الطرق أو فى المعامل والمصانع التى ستنشأ بعد الحرب الحاضرة .

وعلى الدولة أن تحل العناصر النسائية بالتدريج فى الوظائف المعدة لهن كالتعليم والتمريض والطب والخدمة الاجتماعية ، حتى تبعث برجالها إلى الأعمال الشاقة التى تتطلب جهودهم وطاقاتهم .

إن مستقبل مصر الصناعى والتجارى مستقبل باهر يتطلب الأيدى العاملة والقوى المصرية المثابرة فلهذا سوف لا نرهب التكاثر أو زحمة السكان أو اشتغال المرأة بالوظائف العامة المهيأة لها بطبيعتها .

نريد أن يكون زمام الاقتصاد فى مصر بأيدى المصريين ، ولا يكون هذا إلا باستثمار جهودنا وأموالنا ومواهبنا ورجالنا ونسائنا شبابنا وشيبنا .

ولن نكون أمة لها ذاتها إلا إذا استقللنا استقلالا اقتصاديا ؛ فالاقتصاد الآن شريان الأمم بل هو الموجه للأخلاق .

وقد ذهب بعض غلاة المؤرخين وعلى رأسهم ماركس وانجلز إلى أن الموجه للتاريخ فى حياة الشعوب الاجتماعية والسياسية إنما هو الاقتصاد ، بل " إن المؤرخين معترفون بأن العوامل الاقتصادية لعبت دورا بارزا فى جميع عصور النشوء الاجتماعى للعالم وبخاصة فى العصور القديمة أيام كان الانسان مضطرا إلى أن يكافح من أجل وجوده كفاحا متصلا أعداء طبيعيين متساوين له فى القوة وشدة المراس . ثم إن جميع الساسة مدركون أن الشؤون الاقتصادية قد عادت فأصبحت مرة أخرى فى مقدمة الصوالح الانسانية ؛ ولذلك كان التاريخ الاقتصادى فى الآونة الحاضرة دون غيره من فروع التاريخ محل اهتمام الجمهور وعنايته " (٢)

وحياة الفرد نفسه تتأثر إلى حد كبير بميزان الاقتصاد فالمتبطل الذى لا يجد قوت يومه سيندفع إلى سبل الشر عاجلا أو آجلا .

ومصر الاسلامية العربية حاضنة التراث الإسلامى فى العصور الحديثة والتى ينظر إليها كزعيمة للشرق العربى فتهفو إليها نفوس وتتلفت قلوب يجب أن تحرم الخمر تحريما تاما وأن تكافحها مكافحتها المخدرات لما تجر من ويلات على الشباب والأسرات ؛ ولما تخلق من مشاكل فى الأسرة والمجتمع ، ولقد حاولت الولايات المتحدة الأمة المتمدينة أن تحرمها وتمنع دخولها البلاد لما أحسته من اضرارها الجسيمة وعواقبها الوخيمة ثم رجعت عن ذلك لأن العادة كانت قد تغلغلت فى نفوسهم فلم يستطيعوا لها دفعا أو يصبروا عليها طويلا ، أما نحن المصريين فلم نتغلغل فينا هذا التغلغل وإن أخذت تدب دبيبها وتنذر بشر مستطير فقد انتشرت الحانات والمراقص والملاهى وبؤر الفساد .

(٢) علم التاريخ ترجمة الأستاذ العبادى ص ١٧٨ وما بعدها .

كم من حوادث طلاق نشهدها وترجع أسبابها إلى شرب الخمر .

وكم من عقابيل تحدث فى المجتمع من جرائها ؟

اللهم إن هذا البلد والشرق الإسلامى أجمع ليجد شفاءه وبرءه فى الرجوع إلى الدستور الأول الذى يلهمنا ما فيه صلاحنا وحياتنا وهو الاسلام .

نعم إننا نستمد منه الحل الأول والأخير لكل مشكلاتنا فى الحياة إذ أن أحكامه صالحة لكل زمان موافقة لكل مكان .

لقد رأى فى شرب الخمر — ورأيه الحق — تركا وعكوفا على الملذات وانصرافا عن العمل وامتهانا للكرامة الإنسانية ، وتوهينا لروابط الأسرة فكان أمره بتحريمها .

وعلى الحكومة أن تقوم بمراقبة الهجرة والتحرى عن النازحين والنازحات من الأجانب فإن علمت فى سلوكهم التواء أقصتهم فى أقرب وقت من البلاد كما تفعل كل أمة تحافظ على كيانها ، فأكثر الأدواء والعلل إنما ترجع إلى أغلب الوافدين غير المرغوب فيهم .

وعلى الحكومة المصرية الإسلامية أن تبادر بالغاء البغاء الرسمى أو تكاثف البغاء السرى بتعزيز شرطة الآداب ، والتنفير من العبث غير المشروع بعرض الأشرطة السينمائية أو الفانوس السحرى أو نشر المذاهب الصحية التى تجسم بشاعة الأمراض السرية الناشئة من هذا الطريق المعوج .

وتشجيع الزواج المبكر وإعانة ذوى الأولاد ، وإعفاء بعضهم من المصروفات المدرسية وإنشاء الملاجئ وصرف الاعانات لمن تفقد العائل والنصير حتى لا تضل الطريق وأن تنفى إلى الطور مثلا من تراهم خطرا من الرجال الذين يقومون بالاتجار فى الأعراض وتودع المرأة السيئة السلوك فى ملجأ من الملاجئ يقوم باصلاحها وتهذيبها وتعليمها الارتزاق عن طريق شريف مشروع .

وأن تغلق المراقص و "الكباريهات" تدريجا فقد ثبت أنها أوكار الفساد ، وقد عمدت فرنسا إلى هذا الإجراء بعد أن نهضت من عثرتها أخيرا كما رويت البرقيات .

وأخيرا فهذه ملامح وخطوط فى برنامجنا الإصلاحى الخلقى ولعلى أكون قد وفقت فى رسمها فوضعت يدى على موطن الداء وقدمت ناجع الدواء .

" قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى "

محمد مصطفى عطا

أستاذ التربية وعلم النفس بالأزهر